البيان العربي والبيان الافرنجي

تمهيد

البيان حياة العلم بلا مراء واقصى ما تنتهي اليهِ ركائب الادباء . وغاية ما تجدُّ وراءهُ طلبة الانشاء شعار الفصحاء والبلغاء وسمة مصاقع الخطباء . وحلية المجيد من الشعراء . اذا قيست اليهِ بقية علوم الادب كانت بين يديهِ كالخدَم . وكان كالسيد المعلَّم . فهي باجمعها مسوقة لخدمتهِ مبتذلة في سبيلهِ . اذ ليس شيءٌ منها مقصودًا لذاتهِ بل كلها مقصودة من حيث تتأدَّى بطلابِّها اليهِ

اما فضلهُ عليها فمن جهة الموضوع والغرض المقصود . والعلوم كما لا يخفى انما تتفاضل بتفاضل مواضيعها وتتفاوت بتفاوت مباحثها . وتعظم بعظم مقاصدها . واما علوُّ مباحث البيان على مباحث سائر علوم الادب فيكاد يحاكي علوَّ الأطواد على البسائط . فاين مبحث الاعلال والادغام مثلاً من مبحث الفصل والوصل واين مبحث تصريف الفعل مع الضمير من مبحث الايجاز والاطناب والمساواة . واين مطلب افعال المقاربة من مطالب التشبيه والاستعارة والكناية واين مبحث الدخيل والمولَّد من مبحث الخروج عن مقتضى الظاهر . لكن تلك مما لاغنى للبيان عنهُ ولا سلامة لهُ بدونها فمنزلة اللغة والنحو من البيان منزلة الكليات الخمس من القول الشارح في انها وسيلة اليهِ وانهُ هو المقصود بالذات ولا سبيل الى تعريف شيءٍ حدًّا او رسمًا الاَّ بها

هذا ولما كان البيان من علوّ الشأن بالموضع الذي اومأتُ اليهِ عنَّ لي ان اعارض بيان العرب ببيان الافرنج فان المعارضة خير ذريعة الى اظهار المحاسن وابداء المعايب ومعرفة الراجح من المرجوح والقوي من الضعيف . فاذا قال قائل مثلاً زيدٌ اطول من عمرو وقال آخر بل عمرٌو اطول من زيدٍ كان وجه الحكم ان يجتمع زيد وعمرو ويقف احدهما الى جنب الآخر فحينئذٍ يبدو للعين ايهما الاطول وايهما الاقصر ان لم يكن طولهما متساويًا لكن المعارضة تلك اشبه شيءٍ باجتياز ارض وعرة موحشة لم يمرَّ بها مارٌّ من قبل . ألا وهي بحث جديد لم أرَ فيهِ أثرًا لباحث فاتَّبعهُ ولا كلامًا لسابق فاستدل بهِ . فمثِّل لعينك وجدًا يسلك وعرًا مخيفًا تعلم ان ذلك ليس بالمطلب السهل المنال . بل هو من احجم ما يحاول القلم تذليلهُ . يقتضي علمًا يتناول دقيقهُ وجليلهُ ودقة نظرٍ تبين صحيحهُ وعليلهُ . والاَّ ارتدَّ الطامح عليهِ بخفي حنين . ولم القحمهُ ثقة باني ابن بجدتهِ والمضطلع بنسج بردتهِ بل شوقًا الى ما وراء الخوض فيهِ من الفائدة وتفكهة للعقول ببحث جديد ذي بال . وقد قسمت الكلام فيهِ الى مطلبين

وخاتمة الاول في ما اتفق فيهِ البيانان والثاني في ما اختلفا فيهِ والخاتمة في كتب البيان العربي

المطلب الاول في ما اتفق فيهِ البيانان

ربما تخال بادئ بدء ان بين هذين البابين اختلافاً بعيد الشقة شاسع المسافة لكن متى تصفحت كتبهما وامعنت النظر في مباحثهما تنقشع عن ذهنك غمامة ذلك الوهم ويظهر لك ان لا فرق بينهما الاَّ من حيث اختلاف اللغة حتى تحسبهما شقيقين فرَّق الدهر بينهما طفلين فربي احدهما عند العرب والآخر عند الافرنج فنشأ وليس احد منهما يعرف لسان اخيهِ مع ما بينهما من اتحاد المولد وتشابه الطباع وتقارب الملائح

اول ما يتفق فيهِ البيانان ان كليهما يبحث في صور التراكيب من حيث تختلف بها وجوه المعاني وليس في كليهما بحث يتعلق بصحة التركيب وفسادهِ اصلاً بل قد تُرك ذلك كلهُ للنحو عند العرب والافرنج. والثاني ان اكثر الابواب في البيانين واحدة كالتشبيه والمجاز والكناية والتلميح والتكرار واختلاف الترتيب بين المعمولات والحذف وائتلاف اللفظ مع المعنى وائتلاف اللفظ مع اللفظ والطباق والايجاز والاطناب الى غير ذلك مما لا غرض لنا باستقرائهِ في هذا المقام. والثالث ان اصحاب البيانين يحرصون كل الحرص على ائتلاف اللفظ مع المعنى ويحذرون من الجمع بين الجزل والرقيق والجافي والسمح لما في ذلك من التنافر المخل بفصاحة العبارة ويوجبون ان يكون الكلام من وادٍ واحد اما رقيقاً كما في قول الشاعر

اذا ريح الصبا هبَّت اصيلاً شفت بهبوبها قلباً عليلاً

فالفاظ البيت كلها رقيقة رشيقة واما جزلاً كقول الاخطل في قصيدتهِ المشهورة في مدح عبد الملك بن مروان

فما الفرات اذ جاشت غواربهُ في حافتيهِ وفي ارساطهِ العُشَرُ
وزعزعتهُ رياح الصيف واضطربت فوق الجآجيء من آذيهِ غُدُرُ

والرابع ان الامعان في التصنع والتزويق مرفوض عند العرب والافرنج وقد صرَّح بذلك كلا الفريقين في غير موضع من كتبهم. ومن المعلوم عند اهل البيان ان لا اعتبار لشيء من المحسنات الاَّ بعد موافقة الكلام الفصيح لما يقتضيهِ الامر الواقع والاَّ كانت تلك المحسنات كتعليق الدرّ على اعناق الخنازير كما ورد في بعض كتب البيان العربي. وقد انشأ محاورة طويلة امير المنشئين عند الافرنج السيد فنلون في الانتقاد على من يتعمد النكات البديعية والمحسنات اللفظية وقد اشبع ذلك ذمّاً في رسالتهِ الى المجمع العلمي الفرنسوي الجليلة الفائدة الرفيعة القدر عند البلغاء والخطباء التي يستظهرها متعلمو الخطابة في اكثر المدارس الافرنجية.

والخامس ان البيانيين من العرب والاعاجم قد اجمعوا على ان مطالعة الخطب المهذبة والقصائد المحبرة ورسم اساليبها ومناحيها في الذاكرة اعون مع الممارسة على تحصيل ملكة البلاغة من دراسة القواعد فقط. وقد صرّح بهذا ضياء الدين بن الاثير في مثله السائر حيث قال اعلم ايها الناظر في كتابي ان مدار علم البيان على حاكم الذوق السليم الذي هو انفع من ذوق التعليم وهذا الكتاب وان كان فيما يلقيه اليك أستاذا . واذا سألت عما ينتفع به في فنه قيل هذا . فان الدربة والادمان اجدى عليك نفعاً واهدى بصراً وسمعاً . وهما يريانك الخبر عياناً . ويجعلان عسرك من القول امكاناً . وكل جارحة منك قلباً ولساناً . الى ان يقول " وما عليه ان يخلق لك قلباً فان حمل النصال غير مباشرة القتال " . وقال ابن خلدون في الفصل المترجم بعلم الادب " ان المقصود منهُ عند اهل اللسان ثمرتهُ وهي الاجادة في فني المنظوم والمنثور على اساليب العرب ومناحيهم فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساهُ تحصل به الملكة من شعر عالي الطبقة وسجع متساوٍ في الاجادة " الى ان يقول " والمقصود من ذلك كلهِ ان لا يخفى على الناظر فيهِ شيءٌ من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم "

قلت من اراد تقريب المسافة على نفسهِ في اكتساب ملكة حسن التعبير فسبيلهُ ان يحتذي على أمثلة البلغاء حتى يرتسم لقوالب كلامهم صورٌ في ذاكرتهِ فما يقضي عليهِ في مزاولة ذلك الاَّ القليل حتى يرى على انشائهِ صحة البلاغة. وقد اشار الى ذلك عبد الرحمان ابن عيسى الهمذاني في كتابهِ (الالفاظ الكتابية) حيث قال " لا غنى بالكاتب البليغ ولا الشاعر المفلق ولا الخطيب المصقع عن الاقتداء بالاولين والاقتباس من المتقدمين "

واعلم ان من اخذ نفسهُ بمعارضة الجيد من المنثور والمنظوم فان كان شهماً متوقد الفؤاد لا يلبث ان يعلو في النثر والنظم كعبهُ ويأخذ السبق في حلبة الرهان قبلهُ

والسابع ان العرب مثل الافرنج في تنزيل غير العاقل منزلة العاقل فتخاطبهُ وتنسب اليهِ ما ينسب للعاقل كما في قول الفارعة

ايا شجر الخابور مالك مورقاً كانكَ لم تجزع على ابن طريف

وكقول المتنبي

واشجع مني كل يوم سلامتي وما ثبتت الاَّ وفي نفسها امرُ

وكقول الحسين بن مطير

أَلما على معنٍ وقولا لقبرهِ سقتكَ الغوادي مربعاً ثم مربعا

أيا قبر معن كيف واريتَ جودهُ وقد كان منهُ البرُّ والبحرُ مترعا

والثامن ان العرب والافرنج لا يعلّمون البيان الاّ بعد النحو فيتأخر الاول عن الثاني كما يتأخر تفصيل البرد عن نسجهِ

المطلب الثاني في ما يختلفان فيهِ

اوّل ما يختلفان فيهِ ان البيان مقسوم عند الافرنج الى قسمين احدهما علم البلاغة والآخر علم الخطابة والعرب قسموا البيان الى ثلاثة اقسام معان وبيان وبديع واطلقوا على الثلاثة علم البيان وعلى الاوّل والثاني علم البلاغة وجعلوا البديع بقسميهِ المعنوي واللفظي تحسيناً لا يعتبر الاّ بعد رعاية المطابقة المعتبرة في علم المعاني ورعاية وضوح الدلالة المعتبر في علم البيان والاّ كان مستهجناً مرذولاً .وفي عدهم البديع المعنوي كلهُ تحسيناً نظر وسنبحث في هذا بحثاً واسعاً

واما علم الخطابة فلم اعلم عربياً تصدّى للتأليف فيهِ ولذلك ترجم ابن رشد كتاباً في علم الخطابة لارسطوطاليس وقد طُبع في بعض مطابع اوربا العربية ونشرت المطبعة اليسوعية فصولاً منهُ في مجموعة نفيسةٍ موسومةٍ بمقالات علم الأدب. والثاني ان البيان الافرنجي يبحث في مصادر المعاني ومخارجها بحثاً واسعاً ويفتح الابواب لبسطها ويذكر طرقاً تهدي اليها . واما علماء البيان عندنا فلم يتعرّض احد منهم لعقد فصول في هذا الصدد بل وكلوا بذلك جميعهِ الفطَر والاذواق والاحوال اعتباراً ان رسومهُ واحكامهُ مما تستأثر بتعليمهِ القرائز وتستبد بتلقينهِ الفطر وتهدي اليهِ قوّة الحس وسلامة الذوق . والثالث ان البيان الافرنجي يذكر طرق تأليف الخطب وتقسيمها واما البيان العربي فلا يذكر في هذا الباب الاّ براعة الاستهلال وبراعة التخلص وبراعة الختام . لكن الشعراء اذا ارادوا المدح بدأوا بالغزل او النسيب ومتى فرغ الشاعر من نسيبهِ يتخلص الى مدح من يريد مدحهُ فقد يتقدم بيت التخلص ابيات كثيرة كما وقع لحبيب في داليتهِ التي يمدح بها احمد بن دوّاد ومطلعها

ارأيت اي سوالف وخدود عنّت لنا بين اللوى فزرود

فمن هذا المطلع الى بيت التخلص وهو

هيهات منها روضةٌ محمودة حتى تناخَ باحمدَ المحمودِ

ثلاثة عشر بيتاً فما أدري كيف تكون براعة الاستهلال دالة على ما قصدهُ الشاعر من المدح وهي نسيب او غزل وقد انتقد على الشعراء هذه العادة بعض ولاة الامر منهم عمرو بن العلاء قال يخاطب جماعةً من الشعراء قصدوهُ بقصائد مدحوهُ بها فلم يجز منهم الاّ ابا العتاهية "ان احدكم يريد مدحنا فينسب في قصيدتهِ بخمسين بيتاً فما يبلغ مدحنا حتى تذهب حلاوة شعرهِ وتعرى طلاوة رونقهِ وابو العتاهية بدأ بذكرنا وختم بمدحنا فكان المستوجب للجائزة

دونكم ". والرابع ان البيان الافرنجي مترجم عن البيان اللاتيني وهذا مأخوذ عن البيان اليوناني فهو بيان ثلاث أمم وبلاغة ثلاث لغات. ومن ثمَّ فلا يتصرفون في التمثيل لضروبه وانواعه على ما ورد في اللغة الافرنجية بل يمثلون لها بما يجدونهُ بليغاً في اي لغة فكثيراً ما يأتون بأمثلة للطبقة العالية وغيرها من طبقات الكلام بفصول او آيات من اسفار العهدين و بفقر او خطب من يونانية او لاتينية فيعدون من النمط العالي نبوَّة بلعام الواردة في سفر العدد ٢٣ و٢٤ وتسجة موسى قبيل وفاته الواردة في سفر التثنية ٣٢ والنبوَّة بخراب اورشليم وانقضاء العالم المذكورة في انجيل متى ٢٤ كما يعدون من ذلك النمط ايضاً وصف هوميروس لمعارك الابطال وفيليبيات ديموستان وكاتيلينيات شيشرون وعظة الخطيب البليغ بوردالو اليسوعي في مبعث المسيح و يستنتج من صنيعهم هذا انهم في الحكم بالبلاغة ينظرون الى المعنى فوق ما ينظرون الى اللفظ

واما البيان العربي فانما استنبطهُ فرسان البلاغة من النظر في كلام العرب الفصحاء ولم يرد في كتبهم مثال لنوع من انواعهِ مأخوذ عن كتاب اعجمي وكل شواهدهِ من القرآن والشعر

هذا واذا تصفحت ما في العربية من كتب البيان وشروح الدواوين والبديعيات وكتب الأدب وضممت ما تفرق لهم في تضاعيف ذلك من التنبيهات الدقيقة المرشدة الى احكام صناعة الانشاء فلا يكون المطَّلع على البيان الافرنجي اوسع منك علماً بطرق الكتابة واساليبها ولكن ذلك مما لا تصل اليهِ الاَّ بعد الاعوام وهو عند الافرنج مذكور برمتهِ في اصغر كتب البيان فشتان ما حالنا وحالهم من هذه الجهة

الخاتمة في كتب البيان

ان كتب البيان العربي على جلالة مقام اصحابها و بلاغة عبارتها تحتاج الى ان يضم اليها فصول في ما يتعلق بخارج المعاني ومصادرها و بطرق بسطها وتوسيعها وذلك لتظهر للطالب طرق الكتابة وتتبين لهُ أساليبها . ولا يخفى ما في ذلك من الاعانة ولا سيما لذوي القرائح الفاترة على سرعة التوصل الى الغرض المطلوب . واعلم ان بين كتب المشار اليها من حيث الارشاد الى صناعة الانشاء تفاوتاً بعيد المسافة فالمثل السائر من هذا الوجه انفع من المفتاح ومن تلخيصهِ وان كان دونهُ من حيث تقاوة العبارة وكذا كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري وحسن التوسل الى صناعة الترسل . وسأعقد في المقالة بين المطبوع من التآليف البيانية العربية فصولاً وافيةً اذ لا شيء أوفى فائدة للأدباء والمتأدبين ولا هدية افخر عند المثقفين من هذه الموازنات

بيروت سعيد الخوري الشرتوني